

حادثة الإحراق في عهد عثمان دراسة وصفية تحليلية

عبد الأحد مصطفى عبد الرحمن لو

الملخص

يُعتبر الجمع العثماني أو - بتعبير أدقّ - توحيد المصاحف في عهد سيدنا عثمان - رضي الله عنه - من أهمّ المراحل التاريخية التي مرّ بها الكتاب العزيز، وكانت هذه الواقعة العظيمة والمهمة في مصير القرآن تضمنت أموراً كثيرة، منها الجمع بين المحفوظ والمسطور، والتركيز على العرصة الأخيرة، وما كان بلغة قريش، ثم وصل الأمر إلى إحراق بعض النسخ التي كانت سبباً في كثرة الاختلاف في القراءات. وركزت هذه الدراسة على عملية الإحراق كجزء من الجمع العثماني، باعتباره قضية قد تبدو بسيطة، ولكنها تحمل دلالات متعددة، ولها تأثير كبير في تاريخ القرآن الكريم. واعتمد البحث على منهج الاستقراء في تتبع الروايات الإسلامية حول حادثة الإحراق من طرق ورودها وطبيعتها، ثمّ المنهج الوصفي التحليلي الذي يتجلى في تحليل مضامين الروايات والنصوص المُستشهد بها، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في العودة إلى الأحداث وقراءة النصوص في ضوء تاريخها وملاحظة تاريخ الأفكار وتطورها. كما حاولت الدراسة أن تستجلي الآثار التي تركتها حادثة الإحراق على النص القرآني، وعلى التراث الفقهي، والفكر السياسي الإسلامي بشكل عام

Received: 18 June 2021; accepted: 16 September 2021; published 15 October 2022

© 2022 The Author(s), HBKU College of Islamic Studies.

Cite this article as: Lo A. (2022). The reality of the burning of the Quranic copies during the Caliphate of Uthman Ibn Affan: an analytical descriptive study.

Astrolabe: A CIS Student Research Journal, (4)

<https://www.hbku.edu.qa/sites/burningincidenttothman.pdf>



ABSTRACT

The reality of the burning of the Quranic copies during the Caliphate of Uthman Ibn Affan: an analytical descriptive study

Abdoul Ahad LO

The Ottoman collection, or more precisely, unifying the Quran dialect and reciting method during the rule of the Caliph Uthman ibn Affan, is considered one of the most important stages in the history of the Holy Book. This great and critical event in the fate of the Quran comprised many matters: the compiling of the memorized versus and the preserved manuscripts, the focus on the last verse following Quraysh dialect (where Mohammad was from), then the burning of some copies contained variations in the reciting method. This study focused on the reality of the incident of burning these Quran copies (to prevent future conflicts/confusion) during the compiling process of its verses. It is an issue that may seem simple, but it carries multiple connotations and has a significant impact on the history of the Holy Quran. This research used the induction approach in tracing the Islamic narrations of the burning incident from the circumstances and the ways in which it occurred, then the descriptive-analytical approach to analyze the contents of the cited narrations and texts, in addition to the historical method by examining how that event is narrated in old texts to observe the history and development of ideas. The study also attempted to reveal some of the effects that the burning incident has left on the Quranic text, on jurisprudential heritage, and on Islamic-political thought in general.

Keywords: Collection of the Quran, burning of the Quran, Uthman ibn Affan, the ruler

مقدمة

إنَّ القرآنَ الكريمَ يمثِّلُ المصدرَ الرئيسَ والكتابَ الأساسي لدى المسلمين، وقد تمَّت العناية به من قبلهم قديمًا وحديثًا سواء من حيث حفظه أو تدوينه أو تلاوته أو فهمه. ذلك لأنه يمثِّلُ الرسالة الإلهية الخاتمة التي تسعى إلى إقامة علاقة اتصال مباشر بين الإنسان وربِّه، فضلًا عن استجابتها لمتطلبات الإنسان على مرِّ الدهور، وصلاحيّة تعاليمها في حل المشاكل البشرية على اختلاف العصور. ولهذا الأمر، بذل المسلمون كابرًا عن كابر جهودًا مضنية في الحفاظ عليه، بدءًا من كتابته بالوسائل البدائية في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - مع حفظه في الصدور، مرورًا بجمعه بين دفتين، ثم توحيد النصِّ في شكله الرسمي، وصولًا إلى ضبط قراءته وتقييد رسمه.

وقد مرّت هذه العملية بمراحل مختلفة عبر أجيال متعددة، إذ قدّم كلّ جيل دوره الواجب كي يستطيع ضمانه للجيل اللاحق، ويبنى الخلف فيما انتهى إليه السلف، فيتحقق بذلك مدى تكفل الله بحفظه ورعايته.

هذا، ويُعتبَر جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان - رضي الله عنه - من أبرز المراحل التي تركت بصمة واضحة في تاريخ القرآن، إذ كانت هذه المرحلة بمثابة الانتقال من حالة فوضوية القراءة - إن صحّ التعبير - إلى تبني مصحف رسمي، أو - بتعبير آخر - الانتقال من العمل الفردي إلى العمل المؤسّساتي. وكان ذلك بهدف توحيد المسلمين وحملهم على قراءة واحدة رسمية، والتقليل من الاختلافات التي كانت منتشرة بينهم.

وتضمنت هذه العملية أمورًا كثيرة، منها الرجوع إلى المسطور والمحفوظ في الصدور، والمقارنة بينهما، مع التركيز على ما تحويه العرصة الأخيرة، ثم وصل الأمر إلى تضييع - أو إحراق - النسخ التي خالفت النسخة الرسمية.

وكانت حادثة الإحراق هذه من بين الأمور الهامة التي رافقت عملية جمع القرآن وتركت آثارًا عديدة في التراث الإسلامي؛ إذ تمّ تفسير دوافعها من قبل المسلمين وغيرهم على رؤى ونظرات مختلفة، ورسمت من ناحية أخرى طريقة جديدة في التعامل مع القرآن ممّا لم يحدث من قبل، كما وضّحت أيضًا بعض الأمور التي يصح للحاكم فعلها من التدخل في الأمور الدينية.

وعلى الرغم من أهمية هذه الجزئية في تاريخ المسلمين، وخصوصًا فيما يتعلق بتاريخ القرآن، فإنّها بقيت هامشية لدى الباحثين، فلم تكن هناك - في حدود اطلاعنا - بحوث أو كتب خُصّصت لدراسة هذه الجزئية، بل ظلّت تُذكر - عرّصًا - في سياق الحديث عن الجمع العثماني دون الوقوف على حقيقتها ودوافعها، ناهيك عن الآثار المترتبة عليها.

ومن ثمّ شعر الباحث بحاجة تلك الجزئية إلى بحث مستقل يقف على دراسة حقيقتها ودواعيها وآثارها، فشمّر عن ساعد الجدّ لمقاربتها مقارنة تأخذ بعين الاعتبار أبعادها المختلفة.

1. أسئلة البحث

يحاول هذا البحث دراسة حادثة الإحراق التي وقعت في عهد سيّدنا عثمان رضي الله عنه، كتصرفٍ رافق عملية جمع القرآن، سعيًا إلى اكتشاف مدى ثبوت الحادثة وفقًا للمصادر الإسلامية المختلفة، ثم فهم طبيعتها، والدوافع التي أدّت إليها، والآثار التي ترتبت عليها.

وفي هذا الصدد، يكون السؤال الذي يمكن طرحه كإشكالية للموضوع هو: ما حقيقة حادثة حرق المصاحف التي تمت في عهد عثمان رضي الله عنه؟

وهو سؤال تتفرع عنه أسئلة أخرى عديدة، منها: ما المقصود بعملية الإحراق؟ وما طبيعتها؟ ما مدى ثبوت الحادثة وفق المصادر الإسلامية؟ ثمّ ما هي الدوافع التي أدّت إليها؟ وكيف تمّ تفسيرها من قبل المسلمين ثمّ المستشرقين؟ وهل كانت مسألة اجتهادية لها علاقة بالفكر السياسي؟ وماذا كانت ردة فعل الصحابة تجاهها؟ وهل حققت المقصود منها؟ وما هي الآثار التي ترتبت عليها؟

2. أهداف البحث

- تهدف هذه المحاولة المتواضعة إلى تحقيق أهداف عدّة، منها:
- اكتشاف مدى ثبوت حادثة الإحراق وفقاً للمصادر الإسلامية.
 - فهم الرؤى والنظرات المختلفة حول تفسير دواعي الإحراق.
 - بيان الآثار المترتبة على عملية الإحراق بأبعادها المختلفة.
 - إبراز أهمية حادثة الإحراق كجزء من عملية جمع القرآن في عهد عثمان.
 - مناقشة بعض القضايا التي تثار حول حادثة إحراق المصاحف.

3. أسباب اختيار الموضوع

- يعود اختيار الموضوع إلى دوافع موضوعية وذاتية، منها:
- أهمية الموضوع وعدم اطلاعي على دراسة وافية بالغرض المقصود.
 - صلة الموضوع بتخصصي الذي هو الدراسات القرآنية المعاصرة.
 - الإيمان بقدرة البحث على شحذ همم الباحثين وتنبههم على التعامل - بعمق - مع الجزئيات التي قد تبدو بسيطة في تاريخ القرآن.

4. دراسات سابقة

لم أتوصل خلال البحث عمّا كُتِب في الموضوع إلى أيّ دراسة سابقة حاولت أن تتناول موضوع حرق المصاحف وفق الأهداف التي نسعى إليها، على أنّ ذلك لا يعني عدم تعرض الكتب والدراسات له؛ بل يلاحظ له حضور بارز في الكتب التراثية في سياق حديثها عن جمع القرآن كما سنتلمس ذلك لاحقاً، ولكن دون تخصيصه بكتاب مُعيّن أو حتى فصل خاصّ فضلاً عن التوسع في دراسة رواياته وآثاره.

أما المحاولات المعاصرة فقد سلك أغلبها مسلك الكتب التراثية في سرد الحادثة ومحاوله تبريرها دون الوقوف على دراسة أبعادها المختلفة. هذا مع وجود بعض الدراسات التي سعت - ولو لم تكن دراسة الإحراق هدفها - في جمع بعض مرويات الحادثة مع الإشارة إلى بعض أبعادها، مثل ما نجده عند محمد شرعي أبو زيد الذي جعل دراسته أحد مباحث الفصل الرابع من الباب الثاني في رسالته «جمع القرآن في مراحل التاريخيّة من العصر النبوي إلى العصر الحديث»¹ حيث أورد بعض مروياته، كما تضمّن كلامه ذكر بعض آثار الإحراق وإن لم يصرّح بذلك.

ونجد ما يشبه هذا عند الحضرمي أحمد الطلبة، في محاولته «عثمان بن عفان والردّ على الشبهات الواردة حول جمعه للمصحف»²، إذ تحدث فيه عن الإحراق باعتبار أنّ هناك شبهاتٍ تثار حوله، فحاول أن

1 رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن في كلية الشريعة بجامعة الكويت، سنة 1419هـ ص 145 وما بعدها.

2 نشر مركز سلف للبحوث والدراسات. شوهد بتاريخ 11/1/2020م، في: <https://salafcenter.org/4171/>

يردّ عليها بإبراز ما يعتقد أنّه هو دوافع الإحراق، ولكن دون توسع الباحث في جمع كافة الروايات، ناهيك عن دراسة الموضوع بجوانبه المختلفة.

وكلّ هذا إنّما يعكس الفجوة البحثية القائمة حول دراسة حادثة الإحراق في عهد عثمان دراسة علمية. ومن ثمّ سعت هذه المحاولة إلى تغطية هذه الفجوة بالتوسّع في الموضوع عن طريق فهم حقيقته، وطرق وروده، وكيفية تفسيره، والآثار المختلفة التي ترتبت عنه ممّا هو غائب في الدراسات السابقة.

5. منهج الدراسة

للوصول إلى أهداف البحث قام الباحث بتطبيق مناهج مختلفة حسب ما يناسب السياق وما يفيد في تحقيق المقصود. وذلك بدءاً بمنهج الاستقراء في تتبع الروايات حول حادثة الإحراق وطرق ورودها في المصادر الإسلامية، ثم المنهج الوصفي التحليلي المتمثل في تحليل مضامين الروايات والنصوص المُستشهد بها، مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في العودة إلى واقع الأحداث وقراءة النصوص في ضوء تاريخها، وملاحظة تاريخ الأفكار وتطورها.

أولاً: حقيقة الإحراق وطبيعته

تُمثّل حادثة الإحراق نقطة مهمة في تاريخ جمع القرآن في عهد سيّدنا عثمان رضي الله عنه، وقد تم تفسيرها على رؤى وتوجهات متباينة، كما خلفت آثاراً عديدة في التراث الإسلامي. وباعتبار أنّ الخطوة الأولى في دراسة أي حادثة تتجلى في البحث عن مدى ثبوتها، سننتقل إلى ذلك عن طريق استنطاق المصادر الإسلامية المتنوعة فيما يتعلق بوقوع حادثة الإحراق.

1. ثبوت الإحراق

إنّ المتأمل في تناول المصادر الإسلامية لحادثة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه، يجد أنّها -في العموم- تشير إلى عملية حرق المصاحف كتصرف رافق هذا الجمع. ويمكن أن نذكر المصادر الإسلامية التي أشارت إليه وفقاً للتصنيف الآتي:

أ. نماذج من كتب التاريخ

حين نتأمل في مصادر التاريخ الإسلامي نلاحظ أنّ أغلب الكتب التي ترجمت لسيّدنا عثمان تحدثت عن جمع القرآن في عهده باعتباره خدمة كبيرة للمسلمين. وفي إطار ذلك، غالباً ما تذكر هذه المصادر حادثة حرق المصاحف باعتبارها أحد الأمور التي وقعت في سياق هذا الجمع. ويمكن أن نسجل ذلك - مثلاً- عند ابن العربي (ت543هـ) في كتابه **العواصم**، حيث ذكر أنّ سيّدنا عثمان - عليه الرضوان - أمر بعد تمام عملية النسخ وجمع المصحف - بإحراق ما سواه.³ ونجد الأمر نفسه عند عمدة المؤرخين ابن الأثير (ت630هـ) الذي تحدث أيضاً عن الحادثة مبيناً أنّ سيّدنا

عثمان أرسل المصاحف «وحرق ما سوى ذلك»⁴. ونجد ابن كثير (ت774هـ) يذكر الواقعة أيضًا فيقول: «وأما المصاحف فإنما حرقت ما وقع فيه اختلاف وأبقى لهم المُتَّفَق عليه»⁵. والملحوظ في هذه الأمثلة من كتب التاريخ أنها تذكر الواقعة، ولكنها لا تستند في حكايتها إلى ذكر السند، وإنما تكتفي - في الغالب - بذكر الحادثة دون الاهتمام بالرواية وسندها. وربما يعود هذا إلى حرص المنهج الحديثي على السند أكثر من حرص المنهج التاريخي على ذلك، أو لاستناد هذه الكتب إلى روايات أهل الحديث كما لا نلاحظ هذا الأمر عند ابن العربي الذي نقل عبارة البخاري بالحرف.

ب. نماذج من كتب الحديث

إن الناظر في كتب الحديث على اختلافها يلقى أن الجمع الثالث حظي باهتمام بارز لدى المُحدِّثين كغيرهم من العلماء. ويجد المتأمل في كتبهم أن كثيرًا منهم تحدّث عن حادثة الإحراق كتصرف وقع في سياق الجمع العثماني. ولتأكيد هذا سنشير إلى بعض نماذج مما رواه الأئمة.

يُعتَبَر الإمام البخاري (ت256هـ) من أقدم المُحدِّثين الذين ذكروا حادثة الحرق، إذ روى في صحيحه (باب جمع القرآن) حديثًا بسنده عن أنس بن مالك أن سيدنا عثمان - بعد إتمام نسخ المصاحف - «أمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق»⁶. ونجد الأمر نفسه عند الإمام الطبراني (ت360هـ) الذي ذكرها مروية بسندها عن الصحابي نفسه وهو أنس بن مالك، ولكن بصيغة أخرى، إذ رواه بلفظ: «وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به»⁷. وقد رواه البيهقي (ت458هـ) أيضًا بطريق أنس وبصيغة الطبراني نفسها⁸.

ويبدو أن رواية البخاري مثلت أقدَم ما في الباب من رواية، وهذا ما جعلها - بالإضافة إلى مكانة البخاري من حيث تقديم روايته على رواية غيره - عمدة في الباب؛ إذ اعتمد عليه جل المتأخرين عنه في إثبات الحادثة، واعتبروا روايته الأصل الذي يرجع إليه، مع الاستعانة بالروايات الأخرى التي حاولت أن تُسوِّغ مشروعية الإحراق بذكر أنه وقع بإجماع الصحابة، مثل روايات ابن أبي داود كما سيأتي عند الحديث عنه. ومن الملحوظ في الروایتين السابقتين اتفاق الصحابي

- 4 أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث 30. تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي. (دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1987م). ج3، ص9.
- 5 أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية. (دار الفكر، دون ط، 1986م). ج7، ص171. وذكر حادثة الإحراق أيضًا في كتابه فضائل القرآن. [انظر: فضائل القرآن. (مكتبة ابن تيمية، ط1، 1416هـ) ص67].
- 6 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. (دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ). ج6، ص183.
- 7 سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، مسند الشاميين. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. (مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1984م). ج4، ص156.
- 8 أبو بكر أحمد بن الحسين الخراساني البيهقي، السنن الكبير. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. (دار الكتب العلمية - بيروت، ط3، 2003م). ج2، ص61.

أنس بن مالك، مع الاختلاف - اختلافًا لا يضرّ - في الصيغة بالبناء للمجهول (أن يُحرقَ) في البخاري، وبالبناء للفاعل (أن يحرقوا) في رواية الطبراني.

ج. نماذج من كتب علوم القرآن

ربما كانت كتب علوم القرآن أكثرَ توسُّعًا وإسهابًا في قضية الإحراق مقارنةً بغيرها، نظرًا لارتباط الأمر بتخصصها. ونحن في هذه العُجالة، سنكتفي بذكر أقدم مصادرها التي ذكرت الحادثة كدليل على صحة ثبوتها.

وعند إمعان النظر في هذا النوع من الكتب نجد من أقدم رواياتها ما ذكره أبو بكر السَّجِسْتَانِي (ت316هـ) مرويًا بسنده عن أنس بن مالك أيضًا وبعبارة البخاري تقريبًا، إذ رواه السَّجِسْتَانِي بلفظ: «وأمر بسوى ذلك من صحيفة أو مُصَحَّف أن يُحرقَ».⁹ يعني فقط دون لفظ القرآن الوارد في البخاري. وقد رواه ابن أبي داود أيضًا من طريق آخر بصيغة الطبراني نفسها ومع الصحابي نفسه أيضًا.¹⁰ هذا بغض النظر عن مروياته الأخرى التي لم يكتفِ فيها بذكر وقوع الإحراق، وإنما وصل فيها إلى الدفاع عنه باعتبار أنه حدث بإجماع الصحابة.¹¹

ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن السَّجِسْتَانِي مثَّل بذلك مرجعًا مهمًّا مهَّد الطريق لكتب علوم القرآن التي أتت بعده، إذ تبع خطوته في ذكر الواقعة جُلٌّ من تكلم بعده عن الجمع العثماني من أئمة علوم القرآن أمثال أبي شامة شهاب الدين المقدسي (ت665هـ)،¹² و بدر الدين الزركشي (ت794هـ)،¹³ والإمام البقاعي (ت885هـ)،¹⁴ و جلال الدين السيوطي (ت911هـ)،¹⁵ وهكذا إلى من جاء بعدهم من المعاصرين. وبعد هذا التواطؤ الذي شهدناه في المصادر الإسلامية - على اختلاف تخصصاتها من كتب التاريخ والحديث وعلوم القرآن وحتى كتب التفسير¹⁶ - على ذكر حادثة الإحراق يمكن القول إنَّ غلبة الظنِّ تقتضي ثبوت الحادثة من ناحية التاريخ. ويبقى بعد ذلك أن نحاول تحرير طبيعتها بناء على ما ورد فيها

- 9 أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان السَّجِسْتَانِي، كتاب المصاحف. تحقيق: محمد بن عبده. (الفاروق الحديثة - مصر، ط1، 2002م). ص88.
- 10 المصدر السابق، ص91.
- 11 انظر المصدر السابق، ص96، ص98.
- 12 شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي أبو شامة، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز. تحقيق: طيار آلتى قولاج. (دار صادر - بيروت، دون ط، 1975م). ج1، ص51.
- 13 بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957م). ج1، ص236.
- 14 إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور. (مكتبة المعارف - الرياض، ط1، 1987م). ج1، ص419.
- 15 جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون ط، 1974م). ج1، ص209.
- 16 انظر - مثلاً - القرطبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. (دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1964م). ج1، ص52.

من روايات قد تختلف في صيغها.

2. طبيعة الإحراق

مما نلاحظ في الروايات السابقة أنها تتقاطع في الوجود بمادة الحرق بالحاء المُهملة، على أن هناك روايات أخرى بالإعجام أي: الحرق. وأشار إلى هذه الرواية أبو بكر السجستاني في المصاحف، بعد أن سرد رواية أنس بن مالك حيث قال: «وقال غيره: يخرق»¹⁷ ويعني قوله: (غيره) أن رواية الحرق بالإهمال حصلت من طريق واحد فقط، على أنها حظيت بشهرة أكثر لدى العلماء. وربما كان هذا الأمر هو ما دفع ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) إلى القول بأن رواية الأكثر كانت بالخاء المعجمة¹⁸. ذلك باعتبار أن الإهمال له طريق واحد فقط. نعم يعتبر ابن حجر رواية الخاء (الحرق) أكثر ثباتاً،¹⁹ فيما يرى ابن العربي أن كلتا الروايتين - الحاء أو الخاء - جائز²⁰ نظراً لثبوت الروايتين.

ومن المحتمل أن يعود هذا الاختلاف إلى النسخ خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة الكتابة في ذلك الوقت وصعوبة قراءتها، الأمر الذي من شأنه أن يجعل الحاء تختلط بالخاء لعدم وضوح الكتابة. على أي، نجد - رغم كون رواية الخاء أثبت كما يقول ابن حجر - أن القضية اشتهرت بحرق المصاحف لا بخرقها. وهنا نتساءل ما الذي يفسر شهرة رواية الحاء المُهملة بدل الخاء الأكثر ثباتاً؟

واعتقد أن هناك بعض المعطيات يمكن أن تساعد في تفسير ذلك. منها أن رواية الحرق كانت أكثر انتشاراً لدى المُحدثين؛ لكونها أصح بناءً على قواعدهم كما يقول ابن عطية (ت541هـ).²¹ وقد يدل على هذا قول ابن حجر: «وأكثر الروايات صريح في التحريق»²².

ويبدو أنه لا تناقض بين قول ابن حجر؛ إذ ربما يقصد بقوله: «أن الخاء أثبت» يعني في رواية (أن يحرق). ويقصد بقوله إن «أكثر الروايات صريح في التحريق» باعتبار الصيغ الأخرى من مادة الحرق (أن يحرقوا) (أن يحرق) (حرق) ونحو ذلك. وعلى هذا، فلا تعارض بين قوليه.

ومن الملحوظ أن هناك رواياتٍ أخرى غير الحرق والخرق ذكر بعضُها أبو عبيدة (ت224هـ)، منها التشقيق وهو رواية مصعب بن سعد،²³ ومنها التمزيق وهو رواية أبي مجلز،²⁴ ومنها المحو وذكرها ابن

17 أبو بكر السجستاني، المصاحف، مصدر سابق، ص88.

18 أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. تخريج وتصحيح: محب الدين الخطيب. (دار المعرفة - بيروت، 1379هـ). ج9، ص20.

19 المصدر السابق، الصفحة نفسها.

20 أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، مصدر سابق، ص83.

21 انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مصدر سابق، ج9، ص21.

22 المصدر السابق، ج9، ص21.

23 أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله، فضائل القرآن. تحقيق: مروان العطية وآخرين. (دار ابن كثير، ط1، 1995م). ص284.

24 المصدر السابق، ص325.

جَبَان (ت354هـ)،²⁵ ومنها أيضًا الدَّفْن كما ذكرها ابن أبي داود.²⁶ ولا مانع من صحة هذه الروايات كلها كما يشير إليه بعض الدراسات؛²⁷ إذ من المحتمل أن يقع على بعض الصحف الحرق وعلى البعض الآخر التمزيق أو غيره. كما أنه لا مانع من أن يتم التمزيق أولًا ثم الحرق وبعده الدفن والله أعلم. أما المَحْو فهو - كما يشير ابن حَجَر العسقلاني - أعم،²⁸ وقد يُقصد به بالنتيجة مطلق الإتلاف الذي يشمل الحرق وغيره.

ويمكن بعد ذلك كله أن نقرر أن حقيقة ما وقع كانت إحراقًا بالنار كما يشير أغلب المرويات.²⁹ وربما اختاروا الحرق دون غيره؛ لأنَّ الحرق أُفيد في المقصود الذي هو الإتلاف، ولأنَّه أسهل مقارنة مع غيره أيضًا. ويبقى بعد هذا أن نتناول: كيف تمَّ تفسير عملية الإحراق؟ وما هي الدواعي والعوامل التي أدت إليها؟ وهو ما سنناقشه في المبحث التالي.

ثانيًا: دوافع عملية الإحراق

إذا أعمنا النظر في تفسير دواعي الإحراق نجد أنَّ هناك اتجاهاتٍ ورؤى مختلفة، يميل بعضها إلى تبرير العملية وبيان شرعيتها، نظرًا لأنها كانت ترتبط بحفظ القرآن الذي هو مسؤولية على عواتق الأمة، بينما يرى بعض آخر أنَّ هناك أبعادًا أخرى سياسية لم تكن ترتبط - ارتباطًا وثيقًا - بمصير القرآن. وسنحاول هنا أن نشير إلى بعض هذه التوجهات المختلفة مع مناقشتها.

1. رأي المسلمين

الفكرة التي يتبناها المسلمون - في العموم - هي أنَّ عملية الحرق جاءت في سياق الجمع العثماني الذي كان يهدف إلى حلِّ مشكلة الاختلافات التي كانت موجودة بين النُّسخ القرآنية، والتي أدت إلى تكفير بعضهم بعضًا.³⁰ وكانت عملية الحرق بدافع إتلاف النُّسخ التي خالفت النسخة الرسمية. ويبدو هذا المنحى أكثر وضوحًا مع رواية الطَّبْراني سالفه الذكر: «أن يحرقوا كلَّ مُصحف يخالف المُصحف الذي أرسل به». إذ تُعتَبَر هذه الرواية من أكثر الروايات صراحة في بيان ما وقع عليه الحرق. بالإضافة إلى ما قاله الإمام الكِرْمَانِي (ت786هـ) الذي فصل الكلام فيه ببيان أنَّ المحروق هو ما كان أحد الأمور الأربعة: «القرآن المنسوخ، أو المُختَلَط بغيره من التفسير، أو بلغة غير قريش، أو القراءات الشاذة».³¹

- 25 محمد بن حبان، صحيح ابن جَبَان. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. (مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1، 1988م). ج10، ص361.
- 26 أبو بكر السَّجِسْتَانِي، المصاحف. مصدر سابق. ص132.
- 27 انظر لذلك: محمد بن عبد الرحمن الطاسان، المصاحف المنسوبة للصحابة. (دار التدمرية، ط1 ن2012م). ص343.
- 28 ابن حَجَر، فتح الباري، مصدر سابق، ج9، ص21.
- 29 انظر: أبو بكر السَّجِسْتَانِي، المصاحف، مصدر سابق، ص91.
- 30 انظر: المصدر السابق، ص95.
- 31 شمس الدين الكِرْمَانِي، محمد بن يوسف. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. (دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط2، 1981م). ج19، ص9.

وعلى الرغم من أنّ الكِرمانيّ لا يذكر لهذا روايةً، ممّا يعني أنّه ناجم عن تأمله عن طريق السبر والتقسيم بالمحاصرة العقلية، فإنّ إمعان النظر في هدف الإحراق قد يؤيد رأيه ويفترض أن يكون المحروق لا يخرج عن هذه الأنواع الأربعة؛ لأنّها - في الغالب - هي التي لا تتوفر فيها الشروط الواجبة لإضافتها في المُصحّف الإمام. ومع ذلك، فإنّ دليله هذا لا يكفي في تحرير جميع ما وقع عليه الحرق؛ لاحتمال أن يكون هناك نصوص أخرى محروقة غير هذه الأنواع الأربعة، بل وربّما كان هذا هو ما دفع العلماء إلى السكوت عن هذا الأمر وعدم الجزم فيه. نعم، يكون لقوله وجاهة إذا كان مرادُه أنّ هذه الأنواع هي التي كانت عملية الحرق تستهدفها، وهي التي تمّ حرقها بالفعل من القسم الذي يفتقد صلاحية القراءة، مع احتمال حرق أنواع أخرى مما يصلح للقراءة، ولكن كُتِبَ في المصاحف الفردية، وإنّما أحرِقَ لوجوده في مُصحّف سيدتنا حفصة الذي كان هو المرجع الرئيسي.

على أيّ، نستفيد من رأي الكِرمانيّ أنّ دافع الإحراق كان يكمن في حلّ - أو تقليل - مشكلة الاختلافات بين الصُحف المكتوبة بسبب اختلاط هذه الأنواع بغيرها مما ثبت في العرْضة الأخيرة. نعم، ربما يؤكّد كَوْنُ هذا الأمر دافعاً للإحراق لتفادى الصحابة - وهم أحرص الناس على حفظ الرسالة القرآنية - مع سيّدنا عثمان، بحيث كان بعضهم يتمنى لو أمكن أن يحلّ محلّه ويفعل صنعته.³² إذ من الجليّ أنه لو كان لعثمان مقاصد أخرى غير حلّ تلك المشكلة لخالفه بعض الصحابة في اجتهاده، ولا يصدّهم عن ذلك كوْنُه خليفةً للمسلمين.

صحيحٌ أنّ ابنَ مسعود خالفه في البداية،³³ وهي مخالفة تدل على أمرين: الأمر الأول أنّ الحرق كان أمراً اجتهادياً، والأمر الثاني أنّ الصحابة جميعاً اتفقوا مع عثمان في هذا الأمر؛ بدليل عدم وجود مخالف آخر غير ابن مسعود. ناهيك عن كون مخالفته لم تكن بسبب رؤيته عدمَ شرعية حرق المصاحف، وإنّما بسبب تمسكه القويّ بما سمع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما تدلّ عليه الروايات.³⁴ وكان له الحقّ في ذلك، وخصوصاً إذا ذهبنا إلى أنّه كان يعتقد أنّ الجمع قد حصل بعمل فردي من زيد بن ثابت كما توحى إليه عباراته. هذا بغضّ النظر عن صحة أو عدم صحة ما يروي بعضهم من رجوع ابن مسعود عن رأيه وإتفاقه أخيراً مع الرأي العثماني.³⁵

وبذلك كلّهم أنّ دافع حرق الصحف كان يتمثل في حلّ مشكلة اختلاف النسخ؛ إذ كان عثمان

32 انظر: باب اتفاق الناس مع عثمان. [أبو بكر السجستاني، المصاحف. مرجع سابق، ص 66].

33 المصدر السابق، ص 75 وما بعدها.

34 ينظر: أبو بكر السجستاني، المصاحف. مصدر سابق، ص 74. وانظر أيضاً: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الاعتصام. تحقيق ودراسة: محمد بن عبد الرحمن الشقير وآخرين. (دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط 1، 2008م). ج 3، ص 15.

35 يُعتبَر ابن كثير ممن يرى أنّ ابن مسعود تراجع عن هذه المخالفة التي كانت - حسب رأيه - نتيجة غضبه من عدم مشاركته في كتابة المصاحف. [انظر: ابن كثير، فضائل القرآن. مرجع سابق. ص 67-68]. ويبدو أقرب الاحتمالات أنّ رفضه لم يكن بسبب غضبه من ذلك، وإنّما بسبب أنه لم يرص أن يتخلى عما سمعه مباشرة من النبي (ص) ويخضع لفعل زيد بن ثابت الذي ترعرع أمامه. وهذا الاحتمال أقرب ما توحى إليه عباراته. انظر في هذا المعنى: محمد بن عبد الرحمن الطاسان، المصاحف المنسوبة للصحابة. مرجع سابق، ص 671 وما بعدها.

يرى أن بقاء النسخ المخالفة في أيدي الناس مع توحيد القراءة ربما لا يكفي لحل المشكلة؛ لاحتمال عودة المشكلة نفسها مع الأجيال القادمة في حال بقاء النسخ. ويلاحظ أنه لم يخالف عثمان في اجتهاده حول حرق المصاحف إلا الخوارج الذين قتلوه لأسباب كثيرة منها اعتقادهم أن عثمان ابتدع في حرق المصاحف.³⁶

2. آراء بعض المستشرقين

إن الممعن النظر في تناول المستشرقين للقضايا التي تخص تاريخ القرآن يلقي أن قضية الإحراق كان لها حضور بارز في كتاباتهم، باعتبارها أحد الأمور التي لعبت دوراً مهماً في تشكيل المصحف الأم. وسنحاول هنا أن نشير إلى نماذج من هؤلاء المستشرقين الذين ذكروا الحادثة وحاولوا أن يجدوا لها تفسيراً. ونبدأ بالفرنسي ريجي بلاشير (Régis Blachère) (ت1973م) الذي تحدّث عن الإحراق معتبراً أنه وقع بتدبير يكاد يمثل «هتگا للمقدّسات».³⁷ ويظهر من خلال تحليله أنه كان يرى أن الصحف المحروقة لها شرعية النسخة الرسمية نفسها، باعتبار أنها مروية جميعاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم. وهذا التوجيه صحيح من ناحية أن القرآن نزل بأحرف متعددة كلّها صحيحة من حيث الثبوت في الأصل. ولكن التحقيق في الأمر يدل على أن النسخ المحروقة لم تكن بدرجة النسخة الرسمية نفسها؛ لأننا إذا نظرنا إلى سياق الجمع العثماني نلفي - كما سبق - أنه كان بهدف حلّ مشكلة الاختلاف، وذلك بالاقتران على ما ثبت في العرصة الأخيرة وإلغاء غيره،³⁸ وإبعاد الشاذّ وما لم يكن بحرف قريش. وهو أمر يؤكد أن النسخ المحروقة - كما سبق إيضاحه - لم تكن بالدرجة نفسها التي كانت في المصحف الأم كما يوحي إليه كلام بلاشير.

ونجد مثل ما يوحي إليه قول بلاشير عند المستشرق جون جلكريست (John Gilchrist) الذي يرى أن المصحف الأم الذي جمعه زيد بن ثابت كان مصحفاً لا يختلف عن المصاحف الأخرى التي جمعها بعض الصحابة، وكان بطريقة ابن مسعود وغيره.³⁹ وهذا افتراض - كما لا يخفى - مبني على أن عمل زيد كان فردياً وهو أمر تنسفه الأدلة التاريخية.

هذا بخلاف وجهة نظر فريدريش شفالي (Friedrich Schwally) (ت1919م) الذي يعتبر ما فعله عثمان من إحراق الصحف خدمة كبيرة للوحدة الإسلامية، ولكنه يرى في المقابل أنه أدى إلى خسارة كبيرة لوثائق كانت تمثل وسائل للتعرف على كيفية نشوء القرآن.⁴⁰

36 ابن العربي، العواصم من القواصم، مصدر سابق، ص76. وابن كثير، البداية والنهاية. مرجع سابق، ج7، ص171.

37 ريجي بلاشير، القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره. ترجمة: رضا سعادة. (دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974). ص31.

38 أبو بكر الباقلي، محمد بن الطيب، الانتصار للقرآن. تحقيق: محمد عصام القضاة. (دار الفتح-عمان، ط1، 2001م) ج1، ص65.

39 John Gilchrist, *Jam'Al-Quran*. P: 20-21. Available on this link (24/09/2022)

<https://dokumen.tips/download/link/jamal-quran-gilchrist>

40 تيودور نولدكه، تاريخ القرآن. تعديل: فريدريش شفالي. ترجمة: جورج تامر. (دار نشر جورج ألمز، نيويورك، 2001م). ج2، ص341.

وصحيح أن كلام المستشرق شفالي لا يخلو من وجهة، إلا أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن تفادي المشاكل التي كانت تؤدي إليها تلك الصحف في حال بقائها أهم من حفظ هذه المصلحة التي يتحدث عنها شفالي. كما أننا نستفيد من دلالة الإحراق التي قام بها سيدنا عثمان قاعدة تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة التي تُعتَبَر إحدى دعائم الدين الإسلامي، وتخالف ما يدعو إليه شفالي.

أما ما يثيره بعضهم من أن عملية إحراق المصاحف كان فيها نوع من الاستبداد لتحقيق أهداف سياسية بسبب نزعة عثمان الأرستقراطية،⁴¹ فهو مبني - كما يقول عبد الصبور شاهين - على دعوى لم تثبت تاريخياً، وهي افتراض أن المجتمع الإسلامي كان منقسماً - حينئذ - إلى طبقات بالمفهوم الحديث، وأن هذه الطبقات كانت في صراع مادي لتحقيق النفوذ السياسي.⁴² وليس أدل على عدم صحة هذا الافتراض من إجماع الصحابة - كما مر - على ما فعله عثمان، وهم من هم في شدة إيثار الآخرة ونعيمها على الدنيا وحطامها. هذا بصرف النظر عن التسامح الموجود في الجمع العثماني الذي تمثل في إبقاء المصحف يحتمل أكبر قدر ممكن من الأداء المُحتمَل.⁴³

و غاية ما هنالك أن دافع عملية الإحراق كان - كما يفسره السياق - لحفظ القرآن من جانب الوجود والعدم؛ بتقييد الاختلافات التي كانت موجودة. وكان هذا الاجتهاد العثماني بإجماع الصحابة يعني عملاً مؤسسانياً. وبالتالي تصبح نسبة الحرق إلى عثمان نوعاً من التجوُّز، وإلا فهو عمل قامت به الأمة الإسلامية حينئذ، وكان لهذا العمل آثار كثيرة متنوعة في التاريخ الإسلامي، وهي ما سنحاول تناوله في المبحث التالي.

ثالثاً: آثار حادثة الإحراق

لا بد لنا، ونحن في خضم الحديث عن إحراق المصاحف في العهد العثماني، من أن نحاول استجلاء ما خلفه من آثار في التراث الإسلامي. وحين نتأمل في دراسته بعمق نلفي أن هناك آثاراً كثيرة ترتبت عنه من أبعاد وجوانب مختلفة لعل من أبرزها:

1. الأثر القرآني

سبق أن لا حظنا أن هدف الإحراق كان تقييد الاختلافات الموجودة في القراءات المختلفة أو المتعارضة في بعض الصور؛ ولهذا وقع الإحراق على ما لم يُتَّفَق عليه من المنسوخ والقراءة الشاذة والمُختلَط بالتفسير وما كان بغير لغة قريش.⁴⁴ ويوحى هذا إلى نجاح عملية الإحراق إلى حد كبير؛ لأن هذه العناصر

41 انظر لذلك: أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم: دراسة نقدية. (دار القلم - الرباط، ط1، 2009م). ص222 وما بعدها.

42 عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن. (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2007م). ص 210 - 211. (بتصرف في العبارة).

43 محمد بن محمد ابن الجَزَري، النشر في القراءات العشر. تحقيق: علي محمد الضُّبَاع. (المطبعة التجارية الكبرى، دون ط.). ج1، ص33.

44 كما تقدم في نص الإمام الكِرمانِي.

الأربعة أصبح عددها محدودًا بالمقارنة مع القدر الذي كان من الممكن أن يوجد منها في حال عدم الإحراق. إذ كان من المتوقع أن يكون مجموعُ المُختلَط بالتفسير وحده عددًا كبيرًا، ذلك بالنظر إلى كثرة الصحابة وحرصهم على فهم القرآن. هذا ناهيك عن المنسوخ، والقراءات الشاذة، وما نزل بحرف غير قريش. ولكن، أصبح هذا المجموع كله - بفضل الإحراق - أمثلة مُحدّدة وعددًا قليلًا، ممّا يعني أنّ الحرق العثماني قد حقق نجاحًا كبيرًا في تقييد الاختلاف بإتلاف ما كان سببًا في حدوثه.

وعلى الرغم مما يقوله المستشرق شفالي Schawally (ت1919م) من أنّ إحراق المصاحف لم يكن في وسعه أن يحلّ المشكلة؛ لأنّ التركيز حينئذ كان على الحفظ في الصدور أكثر مما هو على الكتابة في السطور،⁴⁵ فإنه كان من المستبعد أن يرجع أحد من الصحابة إلى قراءته السابقة بعد أن تمّ الإجماع من قبلهم - بكلّ أريحية - على ما في المصحف الأمّ. مما يعني أنّ الإحراق لم يكن لأجلهم، وإنما كان من قبل ما يسمى - لدى الأصوليين - بقاعدة اعتبار المأل.⁴⁶ وذلك بتفادي عودة المشكلة مرة أخرى مع الأجيال اللاحقة. وهذا الهدف تمّ تحقيقه، إذ لم يصل من تلكم الأنواع الأربعة التي كان الإحراق يستهدفها إلا نادر جدًّا. وبالتالي فقد نجح الإحراق في مقصده.

وخلاصة القول هنا أنّ حادثة الإحراق قد حققت المقصود من تقييد الاختلاف الذي كان من المُتوقَّع أن يبقى أو يعود مرة أخرى في حال عدم حدوثها. وقد تركت لذلك أثرًا عظيمًا على القرآن الكريم من حيث صونه من الاختلافات المؤثرة وضمانه للأجيال اللاحقة.

2. الأثر الفقهي

إنّ من يمعن النظر في حادثة الإحراق العثماني يجد أنّ الآثار التي خلّفتها لم تقتصر على القرآن الكريم فقط، وإنّما شملت جوانب أخرى من أبرزها المجال الفقهي. ذلك أنّ إحراق المصاحف شكل حادثة غير مسبوقه في التعامل مع القرآن، وهي إحراق صحف أو مصاحف قرآنية. وبسبب هذا، كانت بمنزلة اجتهاد للصحابة في واقعة جديدة طرأت عليهم، وهي: كيف سيتم التعامل مع نسخ قرآنية غير صالحة للاستخدام؟

ويبدو أنّ اجتهادهم في المسألة أدّى بهم إلى اعتبار الإحراق وسيلة مناسبة لحلّ هذه الواقعة. ولذلك تمّ الإجماع من قبلهم على الحرق، فأسسوا به حكمًا جديدًا هو جواز حرق نسخ تحوي آيات قرآنية.

ومن ثمّ أخذ الفقهاء شرعية حرق أجزاء من القرآن إذا لم يعد صالحًا للاستخدام، بل وسّعوا الأمر ففاسوا - بالأولى - الكتب الإسلامية وغيرها على القرآن الكريم اعتمادًا على فعل الصحابة. وهذا ما يدلّ عليه قول ابن بطّال (ت449هـ): «وفي أمر عثمان بتحريق الصّحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز

45 تيودور نولدكه، تاريخ القرآن. مرجع سابق. ص341-342.

46 مفاد هذه القاعدة أنّ المجتهد ينبغي له النظر فيما يؤول إليه اجتهاده وعواقب ما يترتب عليه من مصلحة أو مفسدة. [وللتوسع فيه انظر: الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللّخمي، الموافقات. تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن عفان، ط1، 1997م]. ج5، ص177.

تحريق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى»⁴⁷ بل اعتبروا الحرق في مثل هذه الحالة أفضل وسيلة لما يرون فيه من صون المحروق عن وطئه بالأقدام.⁴⁸

ومن الملحوظ أنّ هناك من العلماء من يرى منع الحرق كما نجده عند السرخسي (ت490هـ)،⁴⁹ لما فيه من نوع الاستخفاف، معتمدًا في ذلك على عدم ثبوت حادثة الإحراق،⁵⁰ إلا أن رأي الجمهور الذي هو الجواز في المسألة يبدو أقوى من ناحية الدليل، نظرًا لما يبدو من ثبوت الإحراق تاريخيًا كما سبق بيانه. نعم، لا يخفى أنّ أقل شيء يمكن أن نصف به ما فعله الصحابة هو الجواز، بل ويمكن أن يرتفع إلى درجة الندب أو حتى الوجوب، وخصوصًا إذا اعتبرنا أنّ الحرق كان وسيلة متعينة؛ لكونه أنسب في تحقيق الهدف الذي هو الإتلاف، فضلًا عن ارتباطه بشيء له علاقة بمصير القرآن الكريم من حيث حفظه الذي هو أمانة منوطة بعواتق السلف لخلفه.

وعلى هذا كله يمكن القول إنّ حادثة حرق المصاحف أثبتت قاعدة مهمة تتجلى في جواز حرق مصاحف قرآنية - وبالأحرى كتب علمية - إذا دعت الضرورة والحاجة إلى ذلك. وبهذا نفهم أنّها أسست حكمًا شرعيًا وخلفت آثارًا فقهية عديدة ممّا لا يتسع المقام لسرد تفاصيلها.

3. الأثر السياسي

حين نتأمل - بدقة - في تصرف سيدنا عثمان في حادثة الإحراق نجد الأمر مرتبطًا - ارتباطًا وثيقًا - بالفكر السياسي، ذلك أننا إذا دققنا في الأمر نلفي أنّ عثمان تصرف باعتبارين: الاعتبار الأول هو كونه أحد الحفظة للقرآن وصاحب أهلية للاجتهاد في قضية عايشها فعرف تفاصيلها، والاعتبار الثاني هو كونه تصرفًا باعتباره والي المسلمين، وعلى عاتق ولي الأمر أن يعتني بدفع الشرّ وجلب الخير لمن هم في رعايته، وخصوصًا إذا كان الأمر متعلقًا بحفظ دينهم.⁵¹

ولا شك في أنّ هذا البعد الأخير يجعل القضية ذات علاقة وثيقة بالفكر السياسي وحدود ما يفعله الحاكم. وبالفعل، فإنّه يوحى إلى مشروعية تدخل الإمام في الشؤون الدينية، وبالأحرى إذا كان الأمر متعلقًا بالقرآن الكريم الذي به قوام الأمة.

ومن هنا نفهم أنّ شعور سيدنا عثمان بهذه المسؤولية الكبرى هو الذي دفعه إلى الاجتهاد في

47 ابن بطّال أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. (مكتبة الرشد - السعودية، ط2، 2003م). ج10، ص226.

48 المصدر السابق، الصفحة نفسها.

49 اختلف في سنة وفاته فقيل سنة 490هـ وقيل سنة 483هـ. واخترنا السنة الأولى لأنها تبدو أصح لدى العلماء. [انظر: محيي الدين عبد القادر بن محمد بن نصر الله، الجواهر المضية في طبقات الحنفية. (نشر: مير محمد كتب خانه، دون ط.). ج2، ص28].

50 محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، شرح السير الكبير. (الشركة الشرقية للإعلانات، دون ط، 1971م). ص1049.

51 انظر في هذا: الماوردى، أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية. تحقيق: أحمد جاد. (دار الحديث - مصر، دون ط، 2006م). ص40. وابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (وزارة الأوقاف السعودية، ط1، 1418م) ص21 وما بعدها.

تحريق المصاحف باعتباره وسيلة لإنقاذ القرآن من الاختلافات المؤثرة في رسالته. ووافق الصحابة على اجتهاده لأنهم كانوا يرون مثل رأيه كما يلمح إليه بعض المرويات، ومن جهة أخرى لوجوب طاعة ولي الأمر في مثل هذه المسألة، نظرًا لأن الإمام إذا اجتهد في مسألة مظنونة ودعا إلى موجب اجتهاده وجب متابعتها.⁵²

ومن هذا أخذ بعض العلماء - كما فعل أبو بكر الباقلاني (ت402هـ) - جواز تحريق الصحف التي فيها القرآن للإمام إذا أدى اجتهاده إلى ذلك.⁵³ نعم، ربما يكون هذا سببًا في حوادث الإحراق التي حدثت فيما بعد عند بعض الولاة، كما فعل مروان بن الحكم في حرق مصحف حفصة بعد وفاتها،⁵⁴ لما كان يرى من احتمال أن يأتي زمن يشك فيه الناس في المصحف الإمام، لاختلافه قد يحدث بين المصحف العثماني وبين مصحف حفصة.⁵⁵ وهو احتمال قوي، وخصوصًا إذا اعتبرنا أن الجمع العثماني - كما يؤكد بعض الروايات - كان متضمنًا ترتيب السور،⁵⁶ ما يعني أن الترتيب فيه قد يختلف عن ترتيب مصحف حفصة رضي الله عنها.

ويدل ذلك كله على أن الإحراق العثماني - بحكم ارتباطه بالسياسة الشرعية - ترك آثارًا سياسية كثيرة من تدخل الإمام واجتهاده في الشؤون الدينية، كما خلف آثارًا أخرى فقهية وغيرها، مما يصعب إحصاؤه ويعز استقصاؤه في هذه العجالة.

الخاتمة

بعد هذا التطواف العلمي حول حادثة إحراق المصاحف في عهد سيّدنا عثمان رضي الله عنه، يمكننا أن نقول - وإن لم نعالج الموضوع بعمق في أبعاده المختلفة - بأننا حاولنا اكتشاف بعض جوانب مهمة لهذه الواقعة، من خلال دراسة حقيقته ودافعه وبعض الآثار التي ترتبت عنه.

وفي ضوء ذلك، يمكن القول إن حادثة الإحراق تُشكل جزئية مهمة في مرحلة جمع القرآن في العهد العثماني. وهي واقعة تقتضي غلبة الظن بثبوتها نظرًا لما نلاحظ من دليل تواطؤ المصادر الإسلامية المتنوعة على ذكرها، من كتب التاريخ، والحديث، وعلوم القرآن، والتفسير، وغيرها.

وكان من الأمور التي نلاحظها في هذه المصادر أن أغلب الروايات التي وردت فيها حول الإحراق جاءت من طريق صحابي واحد هو أنس بن مالك رضي الله عنه. كما نلاحظ أثناء ذلك رواية أخرى غير الحرق من التمزيق والتشقيق والدّفن، إلا أن أكثر الروايات تفيد أن ما وقع كان إحراقًا بالنار.

أما دواعي الإحراق فيبدو أن أفضل وسيلة لفهمها، وإدراك حقيقة ما وقع عليه الحرق، يتمثل في

52 إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم. تحقيق: عبد العظيم الديب. (مكتبة إمام الحرمين، ط2، 1401هـ). ص216.

53 نقلًا عن: ابن بطّال أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري. مصدر سابق. ج10، ص226.

54 أبو بكر السجستاني، المصاحف. مصدر سابق. ص94.

55 المصدر السابق، الصفحة نفسها، و102.

56 بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن. مصدر سابق. ج1، ص238.

الرجوع إلى سياق جمع القرآن في عهد عثمان. وهذا السِّبَاق يوفِّر أن يكون سبب الإحراق هو تقييد الاختلافات التي كانت موجودة في قراءات القرآن. وذلك بتوظيف ما يمكن تسميته - بتعبير الأصوليين - بقاعدة اعتبار المأل، من خلال إتلاف النُّسخ التي كانت - في حال بقائها - ستؤدي مستقبلاً إلى اختلاطها بالمصحف الأم، ممَّا قد يؤدي إلى حدوث المشكلة مرة أخرى. وهذا ما جعل عملية الإحراق تستهدف ما كان سبباً في حدوث الاختلاف، وهو ما سيندرج تحت واحد من العناصر الأربعة: المنسوخ، والمختلط بالتفسير، والشاذ، وما كان بغير لغة قريش.

وقد لاحظنا من خلال ذلك أنَّ إحراق المصاحف كان عملاً غير مسبوق في التاريخ الإسلامي، ولكنَّه وقع باجتهاد عثمان - رضي الله عنه - فأجمع الصحابة على رأيه لما فيه من مصلحة الأمة الإسلامية. وكانت هذه الحادثة قد تركت آثاراً كثيرة في التاريخ الإسلامي، منها آثار قرآنية تتجلى في تحقيق ما كان مقصوداً من الحرق، ومنها آثار فقهية تتمثل في شرعية حرق أجزاء من القرآن أو الكتب العلمية إذا دعت الضرورة إليه، كما أنَّ لها آثاراً سياسية تلخص في جواز تدخل الحاكم واجتهاده - إن كان مؤهلاً - في الشؤون الدينية ممَّا يعود بالنفع على الأمة. وقد سَنَّ سيّدنا عثمان بهذا الاجتهاد سُنَّةً تبعه فيها بعض الولاة، مثلما فعل مروان مع مصحف سيدتنا حفصة رضي الله عنها.

هذا، وتبقى حادثة الإحراق جزئية مهمة في تاريخ القرآن، بحيث لا يمكن - الآن - الحديث عن جمع القرآن في عهد عثمان بمعزل عنها. ولها آثار متعددة الجوانب في التاريخ الإسلامي بشكل عام، كما لها علاقة قوية ببعض موضوعات الدراسات القرآنية اليوم؛ إذ إنَّ المخطوطات القرآنية التي يتم اكتشافها اليوم من حين إلى آخر لا يمكن دراستها - دراسة جادة - بمعزل عن هذه الحادثة. ومن جهة أخرى تحيل هذه المسألة إلى دراسة بعض القضايا التي تثار في السنة النبوية، مثل دعوى إحراق أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - للأحاديث الشريفة. وذلك للنظر في مدى ثبوتها، واكتشاف مدى ترابطها - إن ثبتت - بقضية حرق المصاحف. ويدلُّ هذا كلُّه على أهمية هذه الجزئية وعدم بساطتها. والله تعالى وراء القصد، وهو على ما نقول وكيل.

عبد الأحد مصطفى عبد الرحمن لو

عبد الأحد لو، كاتب وباحث في الفكر الإسلامي، ومهتم بأسئلة النهضة الإنسانية وقضايا الفكر المعاصر. حصل على درجة ماجستير الآداب في الدراسات الإسلامية، تخصص في الدراسات القرآنية المعاصرة، من كلية الدراسات الإسلامية بجامعة حمد بن خليفة (دفعه 2021 م). وحصل أيضا على شهادة العالمية في التعليم العتيق من جامعة القرويين بفاس، المملكة المغربية. كما درس العلوم الإسلامية واللغة العربية في موريتانيا والسنغال. عضو نشط في العديد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية، بما في ذلك الاتحاد الدولي للغة العربية.

alfiya1276@gmail.com

المراجع

- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي، مصادد النظر للإشراف على مقاصد السور. مكتبة المعارف - الرياض، ط1، 1987م.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، الكامل في التاريخ. تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 1987م.
- ابن الجَزْرِي، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر. تحقيق: علي محمد الضَّبَاع. المطبعة التجارية الكبرى، دون ط.
- ابن بَطَّال أبو الحسن علي بن خلف، شرح صحيح البخاري. تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشد - السعودية، ط2، 2003م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. وزارة الأوقاف السعودية، ط1، 1418م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية. دار الفكر، دون ط، 1986م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، فضائل القرآن. مكتبة ابن تيمية، ط1، 1416هـ.
- أبو بكر الباقلاني، محمد بن الطَّيْب، الانتصار للقرآن. تحقيق: محمد عصام القضاة. دار الفتح - عمان، ط1، 2001م.
- أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان السَّجِسْتَانِي، كتاب المصاحف. تحقيق: محمد بن عبده. دار الفاروق الحديثة - مصر، ط1، 2002م.
- أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم. تحقيق وتعليق: محب الدين الخطيب. مكتبة السنة - القاهرة، ط6، 1412هـ.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز. تحقيق: طيار آلتى قولاج. دار صادر - بيروت، دون ط، 1975م.
- أبو عبّيد القاسم بن سلّام بن عبد الله، فضائل القرآن. تحقيق: مروان العطية وآخرين. دار ابن كثير، ط1، 1995م.
- أحمد بن علي بن حَجَر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. تخريج وتصحيح: محبّ الدين الخطيب. دار المعرفة - بيروت، 1379هـ.
- أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم: دراسة نقدية. دار القلم - الرباط، ط1، 2009م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- البهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين الخُرّاساني، السُّنن الكبير. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت، ط3، 2003م.
- تيودور نولدكه، تاريخ القرآن. تعديل: فريدريش شفالي. ترجمة: جورج تامر. (دار نشر جورج ألمز، نيويورك، 2001م).
- الجويني، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله، غياث الأمم في التياث الظُّلم. تحقيق: عبد العظيم الديب. مكتبة إمام الحرمين، ط2، 1401هـ.
- رجبي بلاشير، القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره. ترجمة: رضا سعادة. دار الكتاب اللبناني، ط1، 1974.
- الرُّزْكَشِي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1957م.
- السُّيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون ط، 1974م.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الاعتصام. تحقيق ودراسة: محمد بن عبد الرحمن الشقير وآخرين. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.
- شمس الدين الكِرْمَانِي، محمد بن يوسف. الكواكب الدَّراري في شرح صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط2، 1981م.
- الطَّبْرَانِي، سليمان بن أحمد بن أيوب، مُسند الشاميين. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1984م.
- عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 2007م.
- القرطبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2، 1964م.
- المأوَردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية. تحقيق: أحمد جاد. دار الحديث - مصر، دون ط، 2006م.
- محمد بن أحمد بن أبي سهل السَّرْحَسِي، شرح السير الكبير. الشركة الشرقية للإعلانات، دون ط، 1971م.

محمد بن جِبَّان، **صحيح ابن جِبَّان**. ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بَلْبان الفارسي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1988م.
محمد بن عبد الرحمن الطاسان، **المصاحف المنسوبة للصحابة**. دار التدمرية، ط1، 2012م.
محمد شرعي أبو زيد، رسالة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن في كلية الشريعة بجامعة الكويت، سنة 1419هـ.

John Gilchrist, **Jam'Al-Quran**. Available on this link (242022/09/)

<https://dokumen.tips/download/link/jamal-quran-gilchrist>

